

الباب الرابع والعشرون

عصر الشعراء

الفصل الأول

بسمرك الصين

عهد اللول المتنازعة - انتحار تشو بينج - شي هونج - دي يوحد الصين -
السور الكبير - «إحراق الكتب» - إخفاق شي هونج - دي

أكبر الظن أن كنفوشيوس مات بائساً، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد، ولأن الأمة التي حاول أن يوحدّها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادّة في القوضى والفساد والانقسام. ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم في آخر الأمر واستطاع بمبقرته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيوس.

وفي وسعنا أن نحكم على الجو الذي كان يسود «عهد الدول المتنازعة» من قصة تشو بينج، وهو رجل بدأ نجمه يلمع في سماء الشعر، حتى سما إلى مركز عظيم في وظائف الدولة، ثم ألغى نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف، وأخذ يفكر في الحياة والموت إلى جانب غدير هادى، وسأل متنبئاً من المتنبيين :

« هل ينبغى لى أن أواصل السير في طريق الحق والوفاء، أو أسير في ركاب جيل قاسد ضال؟ هل أعمل في الحقول بالنّأس والجرف أو أسقى للرقى في حاشية عظيم من العطاء؟ هل أعرض نفسى للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنعم الزائف للأثرياء والعطاء؟ وهل أخلق قائماً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانعة النساء كي أنال النجاح ؟ هل أكون نقي السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيماً ، أو أكون معسول الكلام ، مذبذباً ، متزلفاً ، نهائزاً للفرص ؟ ^(١) .

وتخلص الرجل من هذه المشكلة المويضة بالانتحار غرقاً (حوال ٣٥٠ قبل الميلاد) . ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحيون ذكراه في كل عام ، ويحتفلون بهذه الذكرى في يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذي ظلوا يبحثون فيه عن جثته في كل مجرى من المجارى المائية .

وكان الرجل الذي وحد الصين من أصل وضع هو أدنا الأصول التي استطاع المؤرخون الصينيون أن يفتخروا بها . فهم يقولون لنا إن شي هونج — حتى كان ابناً غير شرعي للملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير النبيل « لو » ، وهو الوزير الذي اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلمة واحدة من كتاباته ^(٢) (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبي الممتاز) .

ويقول زوماتشين إن شي اضطرب والده إلى الانتحار واضطهد والدته ، وجلس على كرسي الإمارة وهو في الثانية عشرة من عمره . ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التي كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ؛ فاستولى على دولة هان في عام ٢٣٠ ق . م ، وعلى چو في عام ٢٢٨ وعلى وبه في عام ٢٢٥ ، وعلى تشو في عام ٢٢٣ ، وعلى ين في عام ٢٢٢ ؛ واستولى أخيراً على دولة تشي المهمة في عام ٢٢١ ؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال ، أو لعل ذلك كان لأول مرة في التاريخ كله . ولقب الفاتح نفسه باسم شي هونج — دي ، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دائم لإمبراطوريته الجديدة .

أما أوصاف هذا الرجل الذي يمدّه المؤرخون الصينيون عدوهم الألد ،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين »
 ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لا يفعل الخير ،
 له قلب كقلب النمر أو الذئب »^(٣) . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن
 رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نثشة وبسمرك ، وعقد
 العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على
 عرشها كان أول عمل قام به أن هجم بلاده من الممج البرابرة المجاورين لحدودها
 الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها ،
 وصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد مورداً
 سهلاً يستمد منه حاجته من العمال لتشيد هذا البناء العظيم الذي يعد رمزاً لمجد
 الصين ودليلاً على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسة مئة ميل ،
 وتتخلله في عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء
 أقامه الإنسان في جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه قلتير : « إن أهرام مصر إذا
 ليست إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها »^(٤) . وقد
 احتاج تشييده إلى عشر سنين وإلى عدد لا يحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون
 إنه « أهلك جيلاً من الناس ، وأنقذ كثيراً من الأجيال » . على أنه لم يصد الممج
 عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقتل من
 حدثه . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا
 غرباً إلى أوروبا ، ثم اجتاحتها بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة في أيديهم لأن الصين
 أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شي هوج — دى ، وهو مفتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجه
 عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة
 التي قامت عليها الدولة الصينية في المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشتري
 الكبير ورئيس وزرائه ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعتزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أسراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تعينهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدنى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجزاً معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطراف إمبراطوريته . وجعل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقنع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢ر٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقام الأدب^(٥) .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقده ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليها سيقضى لا محالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريتهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة جيو . فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج — دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم رداً جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنهم^(٦) . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يترسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلاً »^(٧) . فرد عليهم

لى سىورئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية ويضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لارتفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قتم جلالكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجدداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدنا ؛ ومن أجل هذا ساد النبلاء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحداثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الحبل على الغارب ؛ فسينحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى . ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا «مذكرات تشين ، وأن يرغم الذين يحاولون إخفاء السئى — منج ، والشو — منج^(٥) ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاية الأمور لإحراقها^(٨) » .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وحجى بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يحيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع^(٩) . وإذا كانت

الكتب فى تلك الأيام تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل فى بناء السور الكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا^(١٠) . ولكن بعض الأبداء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفى الإمبراطور عادت هذه الكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإت كان كثير من الأغلاط قد تسرب فى أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج — دى مبغضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالاً طويلاً يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره^(١١) .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الكتابة والخطابة أن أمسى شى فى شيوخته لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مزار أن يفتالوه ، ولكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف فى أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله^(١٢) . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه فى الناس من أنه إله ، ولكنه أخفق فى غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً متسلسلة من بعده تنتهى بالإمبراطور المتمم ل عشرة آلاف من نسله ، ولكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا يبعضونه فإنه صار فى شيوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة فى البحث عن إكسبير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك
النن حتى تختفى بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات
قد دفن معه ليؤنسسه في قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال
على قبره ، وأنفق الكثير منها في تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ،
وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ،
وأقيمت في القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ،
وأشعلت فيه شموع ضخمة لكي تضيء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته
إلى أمد غير محدود . أما العمال الذي حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء
مع حملهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السري المؤدى إلى المدفن^(١٤)

الفصل الثاني

تجارب في الاشتراكية

الفوضى والفقر - أسرة هان - إصلاحات وودي - ضريبة الدخل -
مشروعات واذج مانج الاقتصادية - القضاء عليها - غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً في أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس في وسع إنسان أيا كان أن يجمع السلطة كلها في يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لى سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يعض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادلة وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكري مغامر مرتزق يدعى جو - دزو ، وأسس أسرة هان التي ظلت تحكم البلاد أربعمئة عام كاملة ، تخلتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة (*) . وأعاد ون - دى (١٧٩ - ٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى الرسوم الذي حرم به شى هونج - دى انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع العادة الصينية المأثورة عادة هزيمة قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه (١٥) .

وكان وو - دى أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ - ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(*) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهي مدينة هونان في الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجيان وهي مدينة سيان في الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، الهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة في التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التي تعودنا أن نقرنها باسمها . وأخذ وو — دى يقوم بتجارب في الاشتراكية ، فجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك لمنع الأفراد « أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار ، ليجنوا من ورائها الأموال الباطلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا » ^(١٦) . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها . وأراد وو — دى — كما يقول معاصره زوماتشين — أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئته ، ويعتدون القروض ، والذين يشترون ليكدسوا ما يشترونه في المدن ، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائي . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها في جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهالي ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها في الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يمدحون من أن يجنوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنظم وتتوازن في جميع أنحاء الإمبراطورية » ^(١٧) . وكان دخل الأفراد كله يسجل في سجلات حكومية وتؤدي عنه ضريبة مقدارها خمسة في المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالقصدير لتكثر في أيدي الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليجذب بذلك عمالا لملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لاحتصانها وربط الأنهار ببعضها ببعض وإرواء الحقول ^(١٨) (*)

(*) ويقول جرانث في هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا المبررات الماسة العاحلة ، ويحيل إليها أنه لم يكن »

وازدهم النظام الجديد وأفلح إلى حين ، وراجت التجارة ، وكثرت البضائع وتنوعت ، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها^(٢٠) . وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلات خزائن الدولة بالأموال ، وانتشر طلاب العلم في كل مكان ، وكثر الشعراء ، وبدأ الخلف الصيني بتخذ منظرًا جميلًا جذابًا . وجمع في المكتبة الإمبراطورية ٣٣٣٣٣ مجلدًا في الأدب الصيني القديم ، و ٧٠٥٢ في الفلسفة ، و ٣٨٨١ في الشعر ، و ٢٥٦٨ في الرياضيات ، و ٨٦٨ في الطب ، و ٧٩٠ في فنون الحرب^(٢١) . ولم يكن أحد يعين في مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحانًا تضعه لهذا الغرض ، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء . والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذي مر في تلك الأيام .

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافًا إليها خيب بنى الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة . فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجذب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعاً لم تقو الحكومة على وقفه . وتضابق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية ، التي أنحمت في اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء ، وأشاروا بأن يفلى مخترع النظام الجديد في الماء وهو حى ، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردى السليم وعلى التنافس الحر ، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التي كانت الحكومة تفرضها عليهم^(٢٢) . ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السرى على كبار

= يمكن إلا في استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوماً بعد يوم — ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه ؛ وبدت له قديمة بالية . وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حداً يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه . ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المشترعين أضاعا على الصين فرصة ثمينة قلما تمود لتجعل من بلادها دولة موحدة مندمجة منظمة « (٩٦)

الوظفين ، وأصبحن عنصراً هاماً في موجة من الفساد انتشرت في طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور^(٢٣). جأ أخذ المزيّفون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا في تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدي الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضعفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وو دي أو أضحت مسبة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر في بداية التايخ للسيجي بعد أربعة وثمانين عاماً من موت وو دي ، وكان في بادئ الأمر وصياً على العرش ثم أصبح فيما بعد إمبراطوراً . وكان هذا الإمبراطور وانج مانج من أرقى طراز وصل إليه الرجل الصيني الكامل المذهب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد^(*) . وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحول البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحيط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالاً من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال يعزو أعداؤه أسباب إخفاقه ، وإلىهم يعزو أصدقائه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج في بداية حكمه انتشار الرق في ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، فقسّمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها لينع بذلك عودة الأملاك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل^(٢٥) . واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمر .

(*) إلا إذا صدقت الإشاعة التي انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الفلام في السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهي أن أسرة وانج مانج قد سمته (٢٤) .

وحاول كما حاول وو دى أن يحى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتعديده
أثمان السلع . فكانت الدولة تشتري ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية
وتبيعها إذا عزت وغلا ثمنها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة
لكل مشروع إنتاجي^(٣٦) .

لكن وانج لم يفكر فى خططه إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع
الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل والنهار لبيتكر الخطط التى تريد
ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضرم قلبه أن وجد الاضطراب
الاجتماعى ينتشر فى البلاد فى أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية
كالفيلضان والجذب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التى
قضت هذه المشروعات على مطاعمها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فثار وقع
الفتن فى البلاد وصلت سيفها الشعب فى الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القامئين
بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينما كان وانج يكافح فيقم أظفار
هذه الفتن ، وقد ساء كفر الشعب بفضله وجوده بعمته ، إذ أخذت الشعوب
الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ بربرة الشيونج — نو
يبتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هبة الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الفنية ثورة عامة اندلع لميها فى البلاد ، واستولت على
شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألفت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شىء إلى
ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش فى أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف
خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من
الفوضى حكمت فى أثناءه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد فى أيامها إلى
دويلات متعددة . وتدفق التثار على البلاد ولم يصدم عنها السور الكبير ،
واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التثار

سبباً في اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها النامية ، كما كانت غارات الهون الذين يمتون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سبباً في اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا في غمار الفوضى التي عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفي وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة في الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر أجلاً وأقل عمقاً من الاضطراب الذي قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانتعشت انتعاشاً رائعاً يهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة في أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينوين الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضروهم ، وارتقواهم وإياهم إلى أسى ما بلغوه من المجد في تاريخهم الطويل .

الفصل الثالث

مجد تانج

الأسرة المالكة الجديدة - خطة تاي دزونج في تقليل الجرائم - عصر رخاء -
« الإمبراطور النابه » رواية يانج - حوى - في - ثورة آن لو - شان

تمرى نهضة الصين الكبرى(*) في العصر الذى سنتحدث عنه فى هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهى امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التى انبعثت من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو ناى دزويج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو دوزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الممجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجاءه وعاد إلى شانجان عاصمة ملكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعفت بمرآة من السبهان فقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جىء بهن لتسليته .

(*) انظر كتاب السير و . فلندر پيتري The Revolutions of Civilisation
« دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم :
« إني إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا
بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر
هذه الأعمال في منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب » (٣٧) .

وزار الإمبراطور يوما سجون شانجيان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً
حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرثوا الأرض واكتفى منهم
بأن يمدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من
سرور تاي دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسن من ذلك الوقت قانوناً
يقضى ألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام .
وجعل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوروبا ، وجاء إلى
الصين عدد كبير من الرهبان البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال
يوان جوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين
الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجيان ليبشروا بالزردشتية
والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم
أكبر ، ويبسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعفى معابدهم من
الضرائب ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تمانى آلام الفاقة والجهالة
والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقي كنفوشيا بسيطاً بعيداً عن التحيز
والتحكم في عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابه إنه لما مات حزن الناس عليه
حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا
يشغفون أجسامهم بالجراح بالمدى والحزاب ، وينثرون دماءهم التي أراقوها
بأنفسهم طائعين على نعش الإمبراطور المتوفى » (٣٨) .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعاً ،
فقد نعمت في عهده خمسين عاماً من السلام النسبي واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والذرة والحرير والتوابل ، وتنفق مكاسبها في ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . ففصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانئها تمر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة^(٣٩) . وبينما كان الحرير يباع في أوربا بما يعادل وزنه ذهباً^(٤٠) ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من الفراء في القرن الثامن في شانجيان أكثر منها في نيويورك في القرن العشرين . وكان في إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل^(٤١) . وصاح لي بو في إحدى الولايات : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف في المال ! أفداح من الششم الأحمر ، وأطعمة شبيهة نادرة على موائد مرمعة بالجواهر الخضراء ؟ »^(٤٢) وكانت التماثيل تنحت من الياقوت ، وأجسام الأثرياء من الموقى تدفن على فرش من اللؤلؤ^(٤٣) . وكأنما أولع هذا الجنس العظيم بالجمال فجاءه ، وأخذ يكرم بكل ما في وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين في هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل بحق شاعراً »^(٤٤) . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . وبرى « سير جون مانفيل »^(*) Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجرؤ على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يغنى وينطق بالفكاهات »^(٤٥) . وأمر أباطرة المانشو في القرن الثامن عشر الميلادي أن يوضع سجل يحوى ماقاله شعراء تانج ، فكانت

(*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسي كتب في القرن الرابع عشر كتاباً في الأسفار نظمها خيالي ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتاة رائعة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر، كانت هي التي أبقي عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما في دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد؛ وفي هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال في أن الصين كانت في ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنفارة ، وأعظمها رقياً ، وأحسنها حكماً على ظهر الأرض »^(٣٦) ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهده العالم من الثقافات »^(*) .

وكان زينة هذا العصر كله منج هوانج — أى « الإمبراطور الغابة » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاماً تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلاً اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد الغائبة ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وفارس وسمرقند ، وأبقى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راصياً مسروراً عنت الشعراء والبنانين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى في حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكهثرى » ، وقد بدأ حكمه متعشفاً متمزماً ، أغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقوريا يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، ونهى آخر الأمر بعرضه لينعم ببسات يانج جوى — فى — . وكان حين التقى بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشرين سنين محظية لانه الثامن عشر . وكانت بديهة ذات شعر

(*) من أقوال آرثر ويل (٢٧) . راجع دائرة المعارف البريطانية للظمة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان (أيام أسرة تانج) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعار ، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عنيدة ، ذات أطوار شاة متفطرسة وحة ، وتقبلت منه إعجابه بها بقبول حسن ، وعرفته بخمس أسر من أقاربها ، وسمحت له بأن يعين أبناء هذه الأسر في وظائف مجزية سهلة في بلاطه . وكان منج يسمى هذه السيدة « الطاهرة العظيمة » ، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة ، وهو رجل فاسد عاجز ؛ وبينما كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه ، كان هو يواصل ليله بنهاره منمكاً في ضروب اللهو والفساد .

وكان في بلاط مانج رجل تشارى يسمى آن لو — شان يعشق هو الآخر يانج جوى — فى ، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب الحاكم لإحدى الولايات الشمالية ، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية . ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان . وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها ، وفر منج من عاصمة ملكه .

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه في فراره ، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس ، واختطفوا يانج جوى — فى من بين يدى الملك وقتلوا أمام عينيه . ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والمزمنة ، وعانت حجاجل آن لو شان الحمجية في المدينة فسادا ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير^(٣٠) . ويقال إن ستة وثلاثين مليوناً من الأنفس قد قضى عليهم في هذه الفتنة الصماء^(٣١) . ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر في الوصول

(٥) وفي ذلك يقول آرثر ويل Arthur Waley : « لما هزم التار منج هوانج ونهبوا شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتاحت التترك فرساي في عهد لويس الرابع عشر » (٣٨) .

إلى أغراضها ، وقتل آن لو — شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قتل هذا القائد ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخمدت جذوتها في عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوانج محطاً كسير للقلب إلى عاصمته الخربة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفي هذه الفترة من المآسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصيني ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

الفصل الرابع

الملاك المنسوق

قصة لى پو - شبابه وبسالته وحبه - على القارب الإمبراطورى - إنجيل الكرم - الحرب - تجوال لى پو - السجن - « الشمر الحالد »

استقبل منج هوانج ذات يوم من أيام مجده ، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها . فصاح الإمبراطور غاضبا : « ما هذا ؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقوادرجل واحد ينجينا من هذه الورطة ؟ قسا إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصينكم جميعا عن أعمالكم ! » .

وقضى الوزراء يوما كاملا يتشاورون ويتضجرون ، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورءوسهم . ثم تقدم الوزير هو چى - چانج إلى العرش وقال : « هل تأذن لأحد رعايك أن يعلن لجلالتك أن فى بيته شاعرا جليل الشأن يدعى لى متبحرا فى أكثر من علم واحد ؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شىء يعجز عنه » . وأمر الإمبراطور أن يستدعى لى للشول بين يديه من فوره . ولكن لى أبى أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذى طلب إليه أن يضطلع به ، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبي الالتحاق بالوظائف العامة . واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى ، وخلع عليه حلة هذا اللقب . فجاء لى ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء ، وأرغمهم على أن يخلعوا له نعليه ، ثم ترجم الوثيقة ، وقد جاء فيها أن كوريا تعزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها . ولما قرأ لى هذه الرسالة أملى عليها رداً سهوفاً ، ينم عن علم غزير ، وقعه الإمبراطور من فوره ، وكاد

يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً^(١٠)^(١١). وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الخانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — بوجنج ويسميه أهل الغرب فينوس^(١٢). ولهذا سعى الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — بو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشيوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طويلاً ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرّب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدرته وكفايته فقال : إني وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام (صينية) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقات عشرة آلاف رجل^(١٣) . (وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبذ الكروم

وأقداح الذهب

وفتاة حسناء من وو —

فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،

ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —

وحذائين من النسيج القرنفل المشجر —

(١٠) وتلك قصة غريبة لعلها من وضع لى — بو .

(١١) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تفصح عما فى نفسها —
ولكنها تغنى أغانى ساحرة .
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،
المرصعة بأصداق السلاحف .
ثم سكرت فى حجرى .
أى طفلى الحبيبة ! ما أحلى العناق .
خلف الستائر المطرزة بأزهار السوسن^(٤٢) !
ثم تزوج الشاعر ، ولكن مكاسبه كانت ضئيلة ، ففادرت زوجته بيته
وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يبت فيها شوقه موجهة إليها ،
أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —
أيتها الحسنة ، لقد كنت وأنت عندى أملاً البيت زهراً .
أما الآن أيتها الحسنة ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى العطر
الذى خلقتة ورائك .
إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبدا الدهر ؛
ولكن أين أنت الآن يا حبيبتى ؟
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الغصن ،
أذرف الدمع — ويتلأل رضاب الندى الأبيض على الكلال^(٤٣) .
الأخضر .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة المتعطلين فى أبكة
الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير محلة ، ويكسبون أقواتهم المزعزعة
بأغانهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبذ نيو چونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلثمائة ميل^(٤٤) .
والتقى في تجواله بدوفو الذى صار فيما بعد منافسه على تاج الصين الشعرى ،
وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان فى البلاد معا كالأخوين ،
وبنامان تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً
لأنهما كانا كالقديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوق بنفس
الألفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر
مدينة شانجيان وأحب « هو » الوزير الطروب شعرى حبا حمله على أن يبيعم
ما عنده من الحلى الذهبية ليبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لى يو فقدم له ملء إبريق ،

يكتب لك مائة قصيدة

وهو ينفو فى حانة .

فى أحد شوارع مدينة شانجيان ؛

وحتى إذا ناداه مولاه ،

فإنه لا يبطأ بقدمه القارب الإمبراطورى .

بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .

أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويغمره بالهدايا
جزاء ما كان يتغنى به من مديح يانج جوى — فى الظاهرة . وأقام منتج مرة
مأدبة ملكية يوم عيد الفاونيا^(*) فى فسطاط الصبار ، وأرسل فى طلب لى
يو لينشد الشعر فى مديح حبيبته . وجاء لى ، ولكنه كان ثملاً لا يستطيع قرض
الشعر . فأتى خدم القصر ماء بارداً على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

(•) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . (المترجم)

بغنى ويصف ما بين الفاونيا وحببية يأنج من تنافس فقال :

في أثوابها جلال الغمام السابح ،

وفي وجهها سنا الزهرة الفاضرة .

أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى العلا

فوق قلة جبل الجواهر

أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !

على أننى أشهد هاهنا فى روضة الأرض —

حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأسوار ،

وتتألاً لنقاط الندى الكبيرة ...

لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له

والذى حملته إلى القلب أجنحة الربيع^(٤٥) .

ترى منذ الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ؟ لكن الملكة أدخل فى روعها أن للشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريضاً خفياً ، فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — بوكيسا به نقود وصرفه . فأخذ الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان همراهم على لسان الناس فى شانجيان . وكان يرى رأى ليونلنج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى صحبته على الدوام خادمان يحمل أحدهما خيراً ويحمل الآخر مجرفاً يستعين به على دفنه حيث يخرصرىماً « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست لإطحالب فى نهر »^(٤٦) . وكأنما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن تزمّت الفلاسفة الصينية ، فأطلقوا لأنفسهم العنان . وفى ذلك يقول لى بو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنفعل بها

أرواحنا ونظهرها من الأحزان التي لازمتنا طوال حياتنا «^(١٧) . وهو يترنم
بينت الحان ترنم عمر الخيام :

إن الجرى الدافق يصب ماءه في البحر ولا يعود قط .
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ
شبحاً أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام مرآته البراقة ؟
لقد كانت هذه الغدائر في الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،
فلما أقبل المساء إذا هي كلها في بياض الثلج .
هيا بنا ، ما دام ذلك في مقدورنا ، نتذوق الملاذ القديمة ،
ولا نترك إريق الخمر الذهبي
يقف بمفرده في ضياء القمر ...
إني لا أبني سوى نشوة الخمر الطويلة ،
ولا أحب أن أحرق قط من هذه النشوة ...
هيا بنا أنا وأنتا نبتاع الخمر اليوم !
لم تقولان إنكما لا تملكان ثمنها ؟
فجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،
ومعطفى المصنوع من الفراء والذي يساوى ألف قطعة من الذهب
سأخرج عن هذين وآمر غلامى
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة
ولأنس معكما يا صاحبي
أحزان عشرة آلاف من الأعمار^(١٨)

ترى ما هي هذه الأحزان ؟ أمي آلام من محب ازدري حبه ؟ لا نظن هذا
لأن شعراء الصين لا يكترون^(١٩) من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملاً قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى حرارة المآسى البشرية هو الحرب والنفى ، وهو أن لو شأنا الاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفراز الإمبراطور وموت يانج ، وعودة منج هوانج إلى قصوره المهجورة . وهو يقول فى حسرة :
« ليس للحرب نهاية ! » ثم يأسو لنفسه اللاتى قدمن أزواجهن ضحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وهاهى ذى فتاة يورتشاو الحزينة !
لقد امتنع عليها الضياء ، وعز الابتسام ، وحاجباها أشعثان ،
وهى تقف بالباب ، تنتظر عابرى السبيل ،
وتذكر ذلك الذى اختطف سيقه وسار لحماية الحدود ،
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،



فى مشيتها الذهبية الثمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،
قد بقى لها سهمان مرآشان بريشتين بيضاوين ،
بين نسج العنكبوت وما تجمع من القبار خلال السنين الطوال .
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه
للقلب من أحزان .

ثم تخرج السهمين وتمرحهما وتذرورمادهما فى الرياح .
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سهلاً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،
ولكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،
وهبت ريح الشمال ؟^(١٩)

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التي وصفه بها دزو تشويج — جى : « على ظهرك حقيبة ملاءى بالكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفي بكك خنجر وفي جيبيك طائفة من القصائد »^(٥٠) . وقد حبه رفيقته القديمة للطبيعة في هذا التجوال الطويل بعزاء وسوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفي وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة المدن قد أخذ عبثها الباهظ يثقل على الروح الصينية :

لم أعيش بين الجبال الخضراء ؟
إني أضحك من هذا السؤال ولا أجيب عنه ، إن روجي ساكنة صافية ؛
إنها تسكن سماء أخرى وأرضاً ليست ملكاً لإنسان .
إن أشجار الخوخ منهذمة والماء ينساب من تحتها^(٥١) .
ثم انظر إلى هذه الأبيات :
أبصرت ضياء القمر أمام مخدعي .
نخلته الصقيع على الأرض .
ورفعت رأسي ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،
وطأطأت رأسي وفكرت في موطني البعيد^(٥٢) .
ولما تقدمت به السن وابتيض شعره امتلأ قلبه حناناً للأماكن التي قضى فيها أيام شبابه . وكمن مرة ، وهو يحيا في العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه للحياة البسيطة الطبيعية التي كان يحياها في مسقط رأسه وبين أهله :
في أرض وو أوراق التوت خضراء ،
نام دود الحرير مزارات ثلاثاً .
وأرض لوه الشرقية حيث تقيم أسرتي ،
لا أعرف من يزرع فيها حقولنا .
وليس في وسعي أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإننى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر
إن ريح الجنوب إذا هب أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .
وحملتها معها إلى حانئنا المعهودة .

وهناك أرى شجرة خوخ على الجانب الشرقى من البيت ،
بأوراقها وأغصانها الكثيفة تموج فى الضباب الأزرق ..
إنها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .
لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،
فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .

أى بنيتى الجميلة يا بنج — يا بنج ، إنى أراك واقفة .

بجوار شجرة الخوخ ، تنزعين منها غصنا مزهرا ،

تقطفين الأزهار ، ولكنى لست معك —

ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !

وأنت يا ولدى الصغير يوسشين لقد نموت حتى بلغت كفى أختك

وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛

ولكن منذ الذى يربت على ظهرك هناك ؟

إنى حين أفكر فى هذه الأمور تخوننى حواسى

ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .

وهأنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض واكتب عليها هذه الرسالة

وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر^(٥٣)

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من

عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام الفوضى والفتن ملكا يحنو عليه ويردعه

غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لعل أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته

قبل هذا راضياً مسروراً ؛ ولكن لى — لتج خرج على خليفة منج هوانج ، فلما
قلت أخفار فتنته ألقى لى بو نفسه بين جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه
خان دولته .

ثم توسط له جوو دزيى القائد الذى أخذ ثووة آن لوشان ، وطلب أن
تفتدى حياة لى بو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . تخفف الإمبراطور عنه الحكم
واستبدل به النفى مدى الحياة . ثم صدر عفوعام بعد ذلك بقليل ، وعاد الشاعر
يتعثر إلى مسقط رأسه . ومرض وتوفى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ؛ وتقول
الأفايص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن يوجد مثلها بين النفوس ميتة .
عادية ، إنه غرق فى أحد الأنهار ، بينما كان يحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق
صورة القمر .

وديون شعره الرقيق الجميل المؤلف من ثلاثين مجلداً لا يترك مجالا للشك فى
أنه حامل لواء شعراء الصين بلا منازع . وقد وصفه ناقد صينى بأنه « قمة تاي
الشاخنة المشرفة على مئات الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا وميض
ملايين من نجوم السماء » (٥٤) .

لقد مات منج هوانج ، ومات يانج وعفا ذكرهما ولكن لى بولا يزال يغنى !
لقد بنيت سفينتى من خشب الأفاويه وصنع سكانها من خشب
المولان .

وجلس العازفون عند طرفها ويبدم الناي من الغاب الحلى بالجواهر .
والمزمار المرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كانت إلى جانبي دن الخمر اللذيذة وغيد
حسان يغنين

ونحن نطقو فوق ظهر الماء تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال !

إذن لكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غريقه الأصفر ،
حرأ كعريس البحر الذى تعقب النوارس^(*) دون غرض يبتغيه ،
إنى الآن أهز الجبال الخمسة بضربات من وحى قلى .
هأنذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .
أيها الشعر الخالد ! إن ألحان شوبن^(**) لشبيهة فى روحها بالشمس والقمر ،
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق النلال^(هـ)

(•) المرلان ضرب من الخشب الثمين وهريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل
سمك والنورس طائر مائى . (المترجم)
(••) انظر ص ٩٦

الفصل الخامس

من خصائص الشعر الصيني

النظم الطليق - « التصوير » - كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة . . - العاطفية - كمال الشكل

ليس في وسعنا أن نحكم على الشعر الصيني بدراسة شعرى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به (وهذا خير من الحكم عليه) وجب عليه أن يسلم نفسه في غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال في أن بعض الصفات الدقيقة التي يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته : فنحن لا نرى في هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التي يتكون كل منها من مقطع واحد ولكنه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجري من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يتشبان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمع إلى النفات — وما فيها من خفض ورفع — التي يترنم بها الشعر الصيني . وجملة القول أن نصف ما في شعر الشرق الأقصى من جمال فنى يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية في لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل في صقلها وعظيم فنها عن المزهية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتفاً من القريض الخلداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويرى » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلاً ضعيفاً عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أهم ما نراه في هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأننا قد لا نجد فيها ما في شعر ملتن وهومر من

عظمة تارة وملالة تارة أخرى . ولكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر في نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة في بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعاني الكثيرة في أنغام قليلة . وإذا كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الكتابة الصينية في جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للكتابة التصويرية ، وتفر من المعنويات المجردة التي لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المراثيات . وإذا كانت المعنويات تكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحيت اللغة الصينية في صورتها المكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيماء دقيق . وكذلك كان الشعر الصيني ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيماء والتركيـز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الكشف عن شيء خفي عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش ؛ بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس في وسع أحد غير الشرقي أن يستجيب لما يوعز به ويملاً الفراغ الذي يتركه . وفي هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »^(٥٦) . فالشعر الصيني كالأخلاق الصينية والفن الصيني ذو جمال رائع لا حد له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعتمد إلى الاستعارة والحجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفي إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويلجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز في القول وما يتقيد به من قيود . ولما تراه في صور روائية هائلة ، ولكن في مقدوره أن يعبر عن المشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(٥٦) انظر وصف مكيول للشعر في مقاله عن ملتن . (المترجم)

الناس يقضون حياتهم متفرقين كالنجوم تتعرك وتشكها لا تلتقى أبداً .
أما هذه العين فما أسعدها ، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك !
ألا ما أقصر أيام الشباب !

وإن لماسنا لئدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال .
بل إن نصف من نعرضهم قد انتقلوا الآن إلى عالم الأرواح .
ألا ما أشد وقع هذا على نفسى .

وقد يعترينا الملل فى بعض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى ،
وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف عجلة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال
فتياناً وتحفظ الدول بشبابها أبداً الدهر . وتمن تدرك من هذا الشعر أن حضارة
الصين كانت قد شاخت وانقضى عهد شبابها فى أيام منج هوانج ، وأن الشعراء فى
هذا العهد — كالفنانين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات
التليدة ، وأنهم كانوا يسخرّون قدرتهم الفنية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من
العيوب . ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلاً فى غير بلاد الصين ،
ولا نرى ما يضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها ،
ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعمق الأفكار . ويقال لنا إن للشعر الذى
كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيماً فى تعليم كل شاب صينى ، وإن الإنسان
لا يجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب . فإذا صح
هذا كان فى تاريخ لى بو ودوفو بعض ما نجيب به حين نسأل لم يكاد كل صينى
متعلم يكون فناناً وفيلسوفاً ؟

الفصل التاسع

دوفو

داوتشين - پو - چوى - قصائد لشفاء الملاريا - دوفو
ولى پو - رؤى الحرب - أيام الرخاء - الإبلاق - الموت

لى پو عند الصينيين شبيهه بكيتس عند الإنجليز ، ولكن للصين لحزه من
المغنين ، لا يكاد يقلّ حجمهم لهم عن حجم لى پو ، فمنهم داوتشين الشاعر الرواقى
البسيط الذى اعتزل منصباً حكومياً ، لأنه على حد قوله لم يعد فى وسعه « أن يحنى
خفقات ظهره نظير خمسة أرطال من الأرز فى كل يوم » أى أن يبتاع مرتبه
بكرامته . واعتزل داوتشين الحياة العامة كما اعتزلها كثيرون من رجال الدولة
اشتمازاً من حياة الوظيفة ذات اليزعة التجارية ، وذهب ليعيش فى الغابات يمشد
فيها « طول السنين وعمق الخور » ، ويجد فى مجارى الصين وجبالها من السلوى
والبهجة ما صورته رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأغوان تحت السياج للشرق ،

ثم أسرح الطرف طويلاً فى تلال الصيف البعيدة

وأملأ صدرى من هواء الجبال الدقى عند مطلع الفجر ،

وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .

إن فى هذه الأشياء لمعانى عميقة ،

لكننا إذا شئنا التعبير عنها خائفنا الألفاظ فجاءة . . .

ألا ما أسخف أن يفضى المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة المظورة

فى تراب الطرقات !

ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتى على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلاً حبساً في قفص ؛

وهأنذا قد عدت

إذ لا بد للإنسان أن يعود

ليجيا حياته الطبيعية^(٥٧)

أما بو — جوى فقد سلك مسلكاً آخر ، إذ اختار المنصب الرسمى والحياة فى العاصمة . وصار يرقى فى المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانج تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . لكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة فى فترات نقي فيها من بلده^(٥٨) . وعرف السر الذى يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجاهير ، وبين الراحة والحياة النشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء . لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلاً وسطاً غير ممتاز فى « الخط ، والتصوير ، والشرنج ، ونبير ، وهى الوسائل التى تؤدى إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »^(٥٩) . وكان مولماً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروى عنه أنه كان يقرأ قصائده لمجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم سىء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجاهير ، وكان شعره ينقش فى كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقرات السفن . ويروى أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنى راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن فى مقدورى أن أسمعك قصيدة الأستاذ بو : الغلطة الأبدية »^{(٦٠)(*)} وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر المحبوب العميق الذى يقول فيه ارر وبلى Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون فى الأدب

(٥) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التى يروى بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى فى موتها فى أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة حالة إل الحد الذى توصف به ، وهى أطول من أن تتبع لها هذه الصفحات .

الصيني من الإنجليز أن يقولوا إن لي تاي — بو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصيني «^(٦١)

ونحن نسمع به لأول مرة في شانجيان حيث أقبل ليؤدي امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكومياً ، ولكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت في عضده ، رغم أنه أخفق في مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحي الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه^(٦٢) . وقرأ بنج هوانج بعض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجحه فيه وعينه أمين أسرار القائد تسو . وشجع هذا العمل دوفو وأنساه وقتاً ما زوجته وأبناءه في قريتهم النائية ، فأقام في العاصمة وتبادل هو ولي بو الأغاني . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدي ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لي بو يقول :

أحب مولاي كما يحب الأخ الأصغر أخاه الأكبر ،

ففي الخريف وفي نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفي النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا في أيام كان منبج ليانج يحب جوى ' في ' فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين في بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصور الناحية الإنسانية من الحرب :

في الليلة الماضية صدر أمر حكومي

بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .

وأمرنا أن نعاونوا على الدفاع عن العاصمة

أيها الأم ! وأيها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !

إن هذه الدموع التي تذرفونها تضر بكم .

وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام

ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ولا السماء .
د هل تعرفون أن في شاتونج مائتي مقاطعة قد استحالت صحارى مجذبة ،
وأن آلافا من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟
وأن الرجال يذبجون ذبح الكلاب ، والنساء يستقن كما يساق الدجاج ..
ولو أنني كنت أعرف ما هو نجبا للأولاد من سوء المصير
لفضلت أن يكون أطفالي كلهم بنات ...
ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل .
ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب في الماضي البعيد مدفونة بجوار
البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهى بيضاء رهيبة تراها المين فوق الرمال ،
هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصبح جمادات ،
وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت المريح الباردة ،
علت أصواتهم حتى علمتني كيف تقتل المرء الأحران ...

إن الطيور تتفاغى في أحلامها وهى تحلق فوق للاء
والبراعة تشع بضياؤها فى غسق الليل .
فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟
إلى آتخسر خلال الليل فى غير طائل^(٦٤)

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يظوف بأنحاء الصين تقاسمه إملاقه
زوجته وأبناؤه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدى الناس الخبز ، ومن ذلته أنه
خررا كما يدعو بالخير للرجل الذى آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان^(٦٥) .
لثم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم ين وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخاً على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر^(*) . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروباً يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟

إن أمانى جبالا وغابات كثيفة سوداء فاحمة .

وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحنى وكتفى

وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...

فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال

مشيت رويداً ، وتمنيت أن يفرق الجمال روحى

أحب أن ألمس ريش الطير .

وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .

وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،

بل أحب أن أعد لقاحه الذهبى ،

ألا ما أحلى الجلوس على الكلا ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى ...

أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر

التي فى زرقة اليشب^(٢٥) .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى

منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثار

الحرب حول الشاعر ، فأسمى وحيداً لا سداً له إلا عبقريته ، وسرعان ما ألقى نفسه

(*) ويصور رسم صينى نهير « الشاعر دوفو فى الكوخ المبنى » . وتوجد هذه

الصورة فى متحف الفن بـنيويورك .

فقيراً معدماً ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان في آخر أيامه شيخاً مهدماً بئساً وحيداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضعفه أن يقاومهم^(٦٧) ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد في وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لي بو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه في البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولما يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فخرج إلى جبل هون المقدس ليزور فيه معبدًا ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحكام قرأ شعره ، فأواه إلى منزله وأقام وليمة تكريمًا له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفوق رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويفنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات في اليوم الثاني^(٦٨) .

الفصل السابع

النثر

وفرة الآداب الصينية - الروايات العرامية - التاريخ
زوماتشين - المقالات - هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تانج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصينى ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقيقة تماكان فى هذا العصر من وفرة فى الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون للملكية الأدبية عاملاً من العوامل التى ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية فى البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتاباً تباع الواحدة منها بريال أمريكى ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصينى القديم كلها بريالين^(٦٩) . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس فى وسع أية ترجمة مهما بلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرقى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلمهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل الجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم فى هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويذيع أسماءهم فى سرعة وسهولة . ولذلك فإننا قلنا نجلده ذكرآ فى بلاد الصين قبل أن يدخلها المغول^(٧٠)

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر في تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يزالون بهذه الفروق ، ويتركون أغاني بو — جوى ولى بو في غير تخرج ، ويفضلون عليها الروايات الفرامية التي لا حصر لها ، والتي يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التي تكتب بها المسرحيات . وهي تصور للصينيين في وضوح ما في ما ضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل الفادر منها ، روايات تاريخية ، وقل أن يوجد فيها ما هو واقعي البزعة ، وأقل منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفساني أو الاجتماعي الذي يرقى « بإخوة كرمزوف » The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلام » War and Peace و « البائسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جوان أو « قصة حواشى الماء » التي ألفها رهط من الكتاب في القرن الرابع (*).

ومن أكبر هذه الروايات حجا رواية « هونج لومين » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهي رواية في أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية ليانج هوى هوى أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهي التي يجلفها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سانه جورجى يانه إى أو « رواية المالك الثلاث » وهي رواية منمقة الأسلوب في ألف صفحة ومائتين كتبها لو جوان — چونج (١٢٦٠ — ١٢٤١) في وصف الحرب

(*) لقد ترجمت مسز بيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة جيدة وسمتها « كل الناس إخوة » All Men are Brothers وطبعت في نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التي أعقبت سقوط أسرة هان^(*)، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التي كانت منتشرة في أوروبا في القرن الثامن عشر. وكثيراً ما تجمع هذه الروايات (إذ جاز لنا في مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها) بين تصوير الأخلاق الفسكة اللطيف الذي تراه في رواية تم جويز Tom Jones وبين القصص الشائق الذي تراه في جل بيلز Gil Blas . وهي أصح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون في السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم .

والتاريخ أجل الأدب شأنًا في الصين ، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين ، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازي من ظهر منهم في الصين ، وما من شك في أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت في التاريخ بقدر ما كتبت الأمة الصينية . ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتبها الرسمىون ، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام ؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه ، وأوجد في الصين قدرًا من الأدب التاريخي لا نرى له مثيلاً في طوله ولا في ملئه في جميع بلاد العالم . وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ . فمنها أربعة وعشرون كتاباً في « تواريخ الأسر » وهو تاريخ رسمى نشر في عام ١٧٤٧ في ٢١٩ مجلداً ضخماً^(٧١) . وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة في الصين مبتدئة بالسور — منج أو « كتاب التاريخ » الذي هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب ، وبالدرزو — جوان وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وموليات كتب الفلب التي وجدت في قبر أحد ملوك ويه ، حتى أخرج في القرن الثانى قبل ميلاد

(٥) وترجمها ش . ه . بروت تيلر C. H. Brewtt-Taylor في جزأين وطبعت

في شنغهاى سنة ١٩٢٥ .

المسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخي الذي جمعه زوما تشين وبذل في جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه في منصب منجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذي بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذي كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملاً . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هي : (١) حوليات الأباطرة ، (٣) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول في المراسم والموسيقى ، وموازين النغمات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرايين الإمبراطورية ؛ والمجاري المائية ، والاقتصاد السياسي (٤) حوليات أسراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذي تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت في ٥٢٦,٠٠٠ متر صيني نقشت بقلم مدبب على ألواح من الغاب في صبر طويل (٧٢) .

ولما فرغ زوما تشين من وضع كتابه هذا الذي قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يضاف إليه إلا هذه المقدمة التواضعة :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها لإخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتم عن محاولته الجريئة التي تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل في لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاقها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه ومطمعه في الحياة ، وإن ثوت عظامه في الينابيع الصفراء » (٧٣) .

ولسنا نجد في صفحات كتاب زوما تشين شيئا من تألق تين Tsine ، ولا
ثرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للاملة
والمعلول كما نجدهما في توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق في لغة
موسيقية كما نجد في جيبون Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع في الصين من
صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما تشين إلى أيام سمية زوما جوانج
الذى حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاماً للصين ، يقول
ظل هؤلاء المؤرخون يكدهون ليدوتوا في صدق وإخلاص حوادث أسرة
حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضعوا في هذا العمل كل ما كان لهم
من مال ، بل إهم أضعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم
كلها في سبيل الحقيقة لا يبيعون عنها بديلاً ، ولم يدخروا شيئاً من هذه الجهود
ينفقونه في جمال الأسلوب ، ولعلمهم كانوا في علمهم هذا على حق ، ولعل التاريخ
ينبغي أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضي يعثرها الغموض إذا
وصلت إلينا في زينة جيبون أو في مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن (*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفي وسعنا أن ننافس أية
أمة من الأمم في عدد المجلدات التي خصصت لتسجيل — وجمع — أتفه الأشياء .
أما المقالة الصينية فهي أجهل من التاريخ الصيني وأعظم منه بهجة . ذلك أن
الفن فيها غير محرم والفصاحة مطلقه العنان . وأوسع كتاب المقالات شهرة هان يو
العظيم الذي يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلونها إجلالاً بلغ من قدره
أنهم يطلبون إلى من يقرأها أن يغسل يديه بماء الورد قبل أن يمسه .

وكان هان يو وضع المواعظ ولكنه وصل إلى أرقى المراتب في خدمة الدولة ،
ولم ينضب عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه

مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرفة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشى الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذى أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور (٨٠٣ ق . م) تقتبس منها هذه السطور لتقديم للقارىء مثلاً من النثر الصينى ، وإن كانت الترجمة الأمانة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة السكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتسلموا عظاماً من عظام بوذا ؛ وأن جلالتم ستشرفون من برج عال على دخوله فى القصر الإمبراطورى ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهياكل المختلفة تقضى بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتفال الذى يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتم لاتفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعلونه مسaire منكم لرغبة الشعب فى أن يحتفل بهذا الجون الباطل فى عاصمة البلاد ، فى الوقت الذى بلغ فيه الرخاء غايته ، وامتلات جميع القلوب بهجة وانسراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامى حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاي بطيئو الإدراك يسهل التغرير بهم ، فإذا رأوا جلالتم تركعون خاشعين أمام قدمى بوذا صاحوا من فورهم : ها هو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قوى الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصى وحرق الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتم . ونتيجة هذا أن تملك الشعب كله ، صفاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه فى حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهياكل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتهم عليهم جلالتم هذا العمل . وبهذا يقضى على

عادتنا وتقاليدينا ، وبصبح مضغة في أفواه الناس وهدفاً لسخرتهم على ظهر الأرض .

« ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجل بالعار من أفعال الرقباء (*) ، يضرع إلى جلالكم أن تتركوا هذه المظالم طعمه للنار والماء ، حتى يبحث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثأر لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصيبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو في هذه اللحظة يشهد السماء على أنه لن يحيد عن عقيدته (٧٤) » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التحريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون لحليف التحريف ، ذلك بأن العالم قد أوتي من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفى هان إلى قرية في هوانج — تويج حيث كان الناس لا يزالون همجا سذجا . ولم يشك من هذا النفي ، بل شرع يهذب الناس ويجعل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملا بتعاليم كنفوشيوس . وقد بلغ من مجاحه في عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها في هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حينما مر » (٧٥) . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية في هيكل كنفوشيوس — وهو المكان الذي يحتفظ به عادة لأتباع المعلم العظيم أو لكبار شراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيله ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هي أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يحج قط إلى رصاء الإمبراطور في نزولج عن انتشار البوذية في الصين .

الفصل الثامن

المسرح

منزلة الوضيفة في الصين - منشؤه - المسرحية - النظارة - الممثلون - الموسى
ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساماً جامعة مانعة ، لأن الصينيين لا يقرّون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل في الصين منزلة تتناسب مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه في هذا شأن كثير من مقومات الحياة . من أجل ذلك لانكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ، والمثّلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها في إعداد أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة وما من شك في أن شيئاً من هذا كان من نصيب الممثلين في جميع الحضارات وبخاصة في العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل الديني الصامت المضحك الذي نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصيني ، فلقد كانت الطقوس الدينية في عهد أسرة جو تشمل أنواعاً من الرقص المصحوب بالمخاصر . ويقال إن هذا الرقص قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلق . ولعل هذا التحريم الذي فصل الرقص عن المراسم الدينية هو الذي نشأ منه التمثيل غير الديني^(٧٦) . وشجع منج هوانج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثير من الفنون الأخرى ، وذلك بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتيان حديقة الكهثرى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاماً قومياً معترفاً به إلا في عهد كو بلاي خان . ذلك أنه لما اختير كو ننج دوفو — وهو من سلالة كنفوشوس — في عام ١٠٣١ ليكون مبعوثاً صينياً إلى البلاط المغولي استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن الماخن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشىوس ومن أجل هذا خرج كوفنج دو — فو غاضباً ؛ لكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا بلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الأيام هى المسرحيات التى كتبت فى أثناء حكم المغول^(٧٧) .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طوارفاً فى حقول خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين فى العراء .

وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة فى أثناء المآدات ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها فى مدينة نانكنج الكبيرة أكثر من دارين^(٧٨) ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكتها إعادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة فى ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزم التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لكنه فى أكثر الأحيان كان يمتد بحوس ساعات أو سبع . وهو الزمن الذى تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية فى هذه الأيام .

وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف فى الأقوال والأعمال ، ولكن واضح المسرحية كان يبذل غاية جهده لجعل خاتمها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاقى ، تعلم الشعب شيئاً من تاريخه ، وتفرس

فى نفوس أفراده الفضائل الكنفوشية — وأهمها كلها بر الأبناء بالآباء.
وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا عليها غايتها .

وقلما كان المسرح يزين بالمناظر أو الأثاث ، ولم يكن له مخرج للممثلين ،
فكان هؤلاء جميعا سواء منهم أصحاب الأدوار وغير أصحابها ، يجلسون على المسرح
طوال وقت التمثيل ، ويقفون إذا ما جاء دورهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان
أن يقدم الخدم الشاى لهم وهم جالسون ؛ وكان غيرهم من الخدم يطوفون بين
النظارة يبيعونهم الدخان والشاى والمرطبات ، ويقدمون لهم القطنائل ليسحوا بها
وجوههم فى ليالى الصيف ؛ وكانوا يشربون ويأكلون ويتحدثون حتى تستلقت
أنظارهم قطعة من التمثيل جميلة أو عالية الصوت ؛ وكثيراً ما كان الممثلون يضطرون
إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكي يسمعهم النظارة ، وكانوا فى أغلب الأحيان
يلبسون أقنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم .

ولما حرم تشين لونج على النساء أن يظهرن على المسرح كان الرجال يمثلون
أدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلاً بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا
هذه بالظهور على المسرح من جديد كان لا يد لهن أن يعملن حاضرات على تقليد
مقلديهن حتى يضمن النجاح . وكان لا بد لممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب
البهلوانية ، لأن أدوارهم كثيراً ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم ،
ولأن كل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معينة
منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل ؛ وكانت حركات
اليدين تستخدم رمزاً للكثير من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثير من
الأقوال ، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد
القديمة ؛ وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين أشباه
ماى لانج — فأنج يؤلف نصف ما فى المسرحية من شعر .

وقصارى القول أن التمثيلية لم تكن كلها رواية مسرحية ، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن في أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت مزيجاً من هذا كله تكاد تشبه في صفاتها مسرحيات العصور الوسطى في أوروبا ، ولكنها كاملة في نوعها كمال الموسيقى البلاستريانية Palestrina أو الزجاج المصبوغ^(٣٩) .

وقلما كانت الموسيقى فنا قائماً بذاته عند الصينيين ، بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزى منشأها كما كانت تعزى منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطوري فوشى . وقد احتوى اللي - جى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشوس عدة رسائل في الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الدزو - جوان الذى كتب بعد عائة عام من أيام كنفوشوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد ويه . وما أن حل عهد كويج - فو - دزه حتى كان السلم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقدم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تنسرب إليه تنقض مضاجع المهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضح بالشكوى من الأنعام الداعرة الشهوانية التى بدأت فى أيامه تحل محل أنعام الماضى المتفقة فى رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق^(٨٠) .

ثم شرع النفوذ اليونانى البكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما فى السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .

وقد عرف الصينيون تقسيم البعد السكى فى الموسيقى إلى اتنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكنهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغمتا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و « صورة السكون » . وكانوا يفهمون التوافق فى الألحان ، ولكنهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات الدفخ الفاي والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية

الكان الأوسط والمزهر وغيرها ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من اليشب والعقيق^(٨١) . وكانت النغمات التي تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربى ، كما تبدو ، فى ظننا ، أحسن الأغاني الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصينى . ولكن هذه النغمات هى التى أثرت فى نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلاً نباتياً ، وهى التى جعلت كثيراً من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذى لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يوفى هذا : « لقد علم الحكماء الإنسان الموسيقى لكى يقشعوا ما فى نفسه من حزن وغم »^(٨٢) وكانوا يؤمنون بقول نثشه : « لولا الموسيقى لكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .